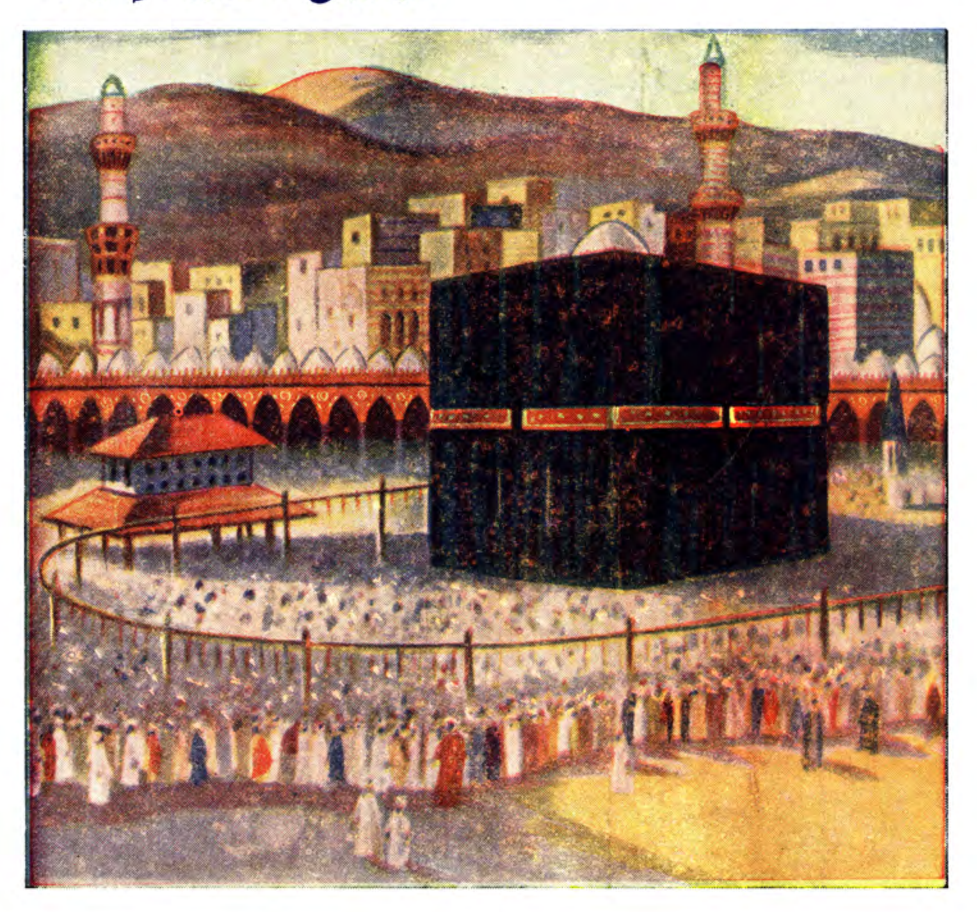
كامل كيلاني

مِن حَياةِ الرسُول

دَرْسٌ لَا يُنْسَى

حِوار بَيْنَ الأصدقاء الثلاثة



كل الحقوق محفوظة

دار مكتبة الأطفال - القاهرة
أول مؤسسة عربية لتثقيف الطفل
٣٢ شارع حسن الأكبر - ت ٥٠٨١٨
٢٨ شارع البستان - ت ٣٣١٥٨

كامل كيلاني

من حياة الرسول

درس لا ينسى

حوار بين الأصدقاء الثلاثة

كل الحقوق محفوظة

دار مكتبة الأطفال
٢٨ شارع البستان ت ٥٠٩٧٢

مطبعة الكيلاني الصغير

٢٨ شارع البستان — باب اللوق
ت ٣٣١٥٨ — القاهرة

حوار بين الأصدقاء الثلاثة

٢ — دَرْسٌ لا يُنْسَى

— مَساءَ الْخَيْرِ ، يا « رَشادُ » .

— مَساءَ الْخَيْرِ ، أَيُّها الْعَزِيزانِ .

— لَقَدْ أَعْجَلَكَ الْوَقْتُ فِي الْحِوارِ السَّابِقِ عَنْ مُواصَلَةِ حَدِيثِكَ الْعَذْبِ ، أَحْوَجَ ما نَكُونُ إِلَى سَماعِ بَقِيَّتِهِ الشَّائِقَةِ .

— كانَ مَوْعِدُ الْقِطارِ قَدْ أَزِفَ ، فَلَمْ يَكُنْ مِنْ مُغادَرَتِكُما بُدٌّ عَلَى كُرْهٍ مِنِّي ، وَأَنْتُما عَلَى ذٰلِكَ شَهِيدانِ .

— لَكَ مَوْفُورُ الْعُذْرِ ، أَيُّها الصَّدِيقُ الْكَرِيمُ ، وَلَقَدْ وَدِدْنا - عَلِمَ اللهُ - لَوْ طالَ بِنا الْحَدِيثُ أَيَّامًا وَلَيالِيَ ؛ فَما يَمَلُّ السَّامِعُ حَدِيثَكَ التَّوْجِيهِيَّ الرَّائِعَ ، الْفَيَّاضَ بِبارِعِ اللَّفَتاتِ ، وَعَمِيقِ الدِّراساتِ .

— صَدَقْتَ ، فَإِنَّ « رَشادًا » دائِمُ التَّجْدِيدِ ، مُولَعٌ بِالطَّرائِفِ مَفْتُونٌ بِاللَّطائِفِ .

— يَأْبَى قَلْبا كُما الطَّاهِرانِ إِلَّا أَنْ تُغْرِقا بِالثَّناءِ مَنْ تُحِبَّانِ ، وَتَنْحَلاهُ مِنْ مَزايا كُما ما تَنْحَلانِ . . وَلَوْلا ما تُثِيرانِ مِنْ أَسْئِلَةٍ لَما تَفَتَّحَتْ لَنا مَغالِقُ الْحَدِيثِ .

— لَقَدْ وَقَفْتَ بِنا فِي خِتامِ حَدِيثِكَ السَّابِقِ عِنْدَ تَحَرُّكِ الْجُيُوشِ الْباغِيَةِ ، الْمُتَحَفِّزَةِ لِلْفَتْكِ ، الظَّامِئَةِ إِلَى الانْتِقامِ ، الْمُتَعَطِّشَةِ إِلَى الدِّماءِ .

— قُلْتَ لَنا ، يا «رَشادُ» إِنَّ ثَلاثَةَ آلافٍ مِنَ الْمُحارِبِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ يَطْوُونَ الْأَرْضَ طَيًّا ، فِي سَبِيلِ الْأَخْذِ بِالثَّأْرِ .

— قُلْتَ لَنا إِنَّ «أَبا سُفْيانَ» كانَ عَلَى رَأْسِهِمْ .

— وإِنَّ «خالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ» كانَ عَلَى مَيْمَنَتِهِمْ .

— وَإِنَّ «عِكْرِمَةَ بْنَ أَبِي جَهْلٍ» كانَ عَلَى مَيْسَرَتِهِمْ .

— كَذٰلِكَ قُلْتُ ، أَيُّها الصَّدِيقانِ ، فَما أَراكُما قَدْ نَسِيتُما مِنْ حَدِيثِي شَيْئًا .

— أَمِثْلُ حَدِيثِكَ الشَّائِقِ الْمُعْجِبِ يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ النِّسْيانُ ؟ !

— لا سِيَّما فِي مِثْلِ هٰذِهِ الْمَواقِفِ الْباقِيَةِ الَّتِي خَلَّدَها الزَّمانُ ، فَلَمْ تَمْتَدَّ إِلَيْها يَدُ الْبِلَى بِتَبْدِيلٍ وَلا تَغْيِيرٍ .

- لَقَدْ وَصَفْتَ لَنا جَيْشَ الْقُرَشِيِّينَ ، فَكَيْفَ كانَ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ ؟

- كانَ عَلَى الْعَكْسِ مِنْ جَيْشِ الأَعْداء ، قَلِيلَ الْعُدَّةِ والْعَدَدِ .

- وَلٰكِنَّهُ كانَ بِإِيمانِهِ يَرْجَحُهُمْ وَيَرْجَحُ أَضْعافَهُمْ .

- كانَ لَهُ مِنْ إِيمانِهِ عَتادٌ وَمَدَدٌ .

- لَقَدْ رَأَيْنا مِصْداقَ ذٰلِكَ فِي مَوْقِعَةِ « بَدْرٍ » .

- وَلٰكِنْ كَيْفَ عَلِمَ الرَّسُولُ بِتَحَفُّزِ أَعْدائِهِ لِغَزْوِ « الْمَدِينَةِ » ؟

- فَضْلُ ذٰلِكَ عائِدٌ إِلَى « الْعَبَّاسِ » : عَمِّهِ !

- لا زالَ « الْعَبَّاسُ » مَصْدَرَ كُلِّ خَيْرٍ ، وَلٰكِنَّهُ كانَ - كَما حَدَّثْتَنا - فِي « مَكَّةَ » ، فَكَيْفَ أَفْضَى إِلَى ابْنِ أَخِيهِ بِالْخَبَرِ ؟

- أَكانَ يُعْجِزُهُ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْهِ بِرَسُولٍ ، حَتَّى لا يُؤْخَذَ عَلَى غِرَّةٍ ، بَعْدَ أَنْ رَأَى تَأَلُّبَ « قُرَيْشٍ » ، واجْتِماعَهُمْ عَلَى إِيذائِهِ ؟

– لقَدْ أَحْسَنَ « الْعَبَّاسُ » ، أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْهِ .

– كانَ يَخْشَى أَنْ يُباغِتُوا ابْنَ أَخِيهِ ، قَبْلَ أَنْ يُعِدَّ الْعُدَّةَ لِمُناجَزَتِهِمْ .

– فَماذا صَنَعَ الرَّسُولُ ؟

– ما كادَ يَبْلُغُهُ النَّبَـــأُ ، حَتَّى أَسْرَعَ – عَلَى عادَتِهِ – فِي مُشاوَرَةِ خُلَصائِهِ .

– كانَ لا يَرْضَى بِالشُّورَى بَدِيلًا .

– كانَ يُحِبُّ أَنْ يُشْرِكَ أَصْحابَهُ دائِمًا فِي كُلِّ خُطْوَةٍ مِنْ خُطُواتِهِ .

– لِيُشْعِرَهُمْ بِتَقْدِيرِهِ لَهُمْ ، وَإِكْبارِهِ لِآرائِهِمْ .

– وَلِيُرَبِّيَ فِيهِمْ رُوحَ التَّعاوُنِ الصَّادِقِ ، وَيُدَرِّبَهُمْ عَلَى الْأَخْذِ بِهٰذا النِّظامِ الْعادِلِ الْحَكِيمِ .

– صَدَقْتَ يا « سَعِيدُ » ، وَقَدْ جَمَعَ حَوْلَهُ « حَمْزَةَ » وَ « عَلِيًّا » وَ « أَبا بَكْرٍ » وَ « عُمَرَ » وَ « عُثْمانَ » .

– جَمَعَ أَقْطابَ الْجِهادِ وَحُماتَهُ ، وَأَعْلامَ الدِّينِ وَهُداتَهُ .

– ثُمَّ نادَى « عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ » وَطائِفَةً مِنْ أُولِي الرَّأْيِ !

– أَكانَ « عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ » مِنْ أَصْفِياءِ الرَّسُولِ ؟

– كَلَّا ، وَلٰكِنَّهُ كانَ رَجُلًا عَظِيمَ الْخَطَرِ .

– ما خَطَرُهُ ؟

– كانَ قائِدَ الْأَنْصارِ .

– يا لَها مِنْ خُطَّةٍ بارِعَةٍ !

– حَتَّى لا يَقُولَ بَعْضُ الْحاقِدِينَ مِمَّنْ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ إِنَّ الرَّسُولَ قَدْ أَغْفَلَ مُشاوَرَةَ الْأَنْصارِ .

– فَماذا حَدَثَ ؟

– تَناضَلَ رَأْيانِ : أَحَدُهُما يَرَى الْخُرُوجَ مِنَ « الْمَدِينَةِ » ، لِمُلاقاةِ الْأَعْداءِ ، والْآخَرُ يَرَى الْبَقاءَ .

– فَمَنْ كانَ مِنْ أَنْصارِ الرَّأْيِ الْأَوَّلِ ؟

– كانَ « حَمْزَةُ » وَ « عَلِيٌّ » مِنْ أَنْصارِهِ !

– تَعْنِي أَنَّ « حَمْزَةَ » وَ « عَلِيًّا » كانا مِنْ أَنْصارِ الْخُرُوجِ ؟

– ذٰلِكَ أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ لا غَرابَةَ فِيهِ ، وَقَدْ تَحَمَّسَ لِرَأْيِهِما شَبابُ « الْمَدِينَةِ » .

– لا زالَ الشَّبابُ فِي كُلِّ عَصْرٍ وَمِصْرٍ رَمْزَ الْإِقْدامِ والشَّجاعَةِ .

– بَلْ قُلْ رَمْزَ الاِسْتِماتَةِ والتَّفْدِيَةِ .

– كَأَنَّما خُيِّلَ إِلَى الشَّبابِ أَنَّ فِي الاِحْتِماءِ بِأَسْوارِ « الْمَدِينَةِ » غَضاضَةً .

– كَذٰلِكَ خُيِّلَ إِلَيْهِمْ يا « صَلاحُ » ، فَقَدْ كانَتْ نُفُوسُهُمُ الْوَثّابَةُ الْمُتَعَطِّشَةُ لِلْجِهادِ ، تُخَيِّلُ إِلَيْهِمْ أَنَّ بَقاءَهُمْ فِي « الْمَدِينَةِ » سَيُثِيرُ عَلَيْهِمُ احْتِقارَ الْعَرَبِ ، وَيَجُرُّ عَلَيْهِمْ تُهْمَةَ الْجُبْنِ .

– لا زالَ الشَّبابُ فِي كُلِّ عَصْرٍ يَسْتَهِينُ بِالْأَخْطارِ .

– إِنَّ الشَّبابَ ، كَما تَعْلَمانِ ، لا يُبالِي الْعاقِبَةَ فِي سَبِيلِ إِدْراكِ غايَتِهِ ، وَلا يَعْنِيهِ إِلَّا أَنْ يُرْضِيَ نَزْعَةَ الْجِهادِ فِي نَفْسِهِ ، جالِبًا عَلَيْهِ قَضاءُ اللّٰهِ ما كانَ جالِبًا .

– فَماذا صَنَعَ الرَّسُولُ ؟

– أَخَذَ بِرَأْيِ الْكَثْرَةِ السّاحِقَةِ ، وَإِنْ خالَفَ رَأْيَهُ .

– تَقُولُ وَإِنْ خالَفَ رَأْيَهُ ؟

تَعْنِي أَنَّهُ كانَ مِنْ أَنْصارِ الْبَقاءِ فِي « الْمَدِينَةِ » !

– كَذٰلِكَ رَأَى ، وَرَأْيُهُ الْحَقُّ ؛ حَتَّى يَلْقَى الْأَعْداءَ مُجْتَمِعَ الشَّمْلِ .

– فَلِماذا أَخَذَ بِالرَّأْيِ الَّذى لَمْ يُقِرَّهُ ؟

– بِذٰلِكَ يَقْضِى نِظامُ الشُّورَى .

– فَكَمْ كانَ عَدَدُ جَيْشِهِ ؟

– كانُوا أَلْفًا مِنَ الْمُحارِبِينَ ، أَوْ يَنْقُصُونَ قَلِيلًا .

– أَكامِلِي الْعَتادِ والْعُدَّةِ كانُوا ؟

– أَنَّى لَهُمْ ذٰلِكَ ؟

– لَمْ يَظْفَرْ مِنْهُمْ بِالدِّرْعِ أَكْثَرُ مِنْ مِائَتَيْنِ .

– يا لَها مِنْ مُجازَفَةٍ لا تَسْلَمُ مَغَبَّتُها !

– فَكَيْفَ لَوْ عَلِمْتَ أَنَّ ثَلٰثَمِائَةٍ مِنْهُمْ كانُوا يَهُمُّونَ أَنْ يَغْدِرُوا بِالرَّسُولِ ؟

– أَحَقًّا تَقُولُ ؟

– وَهَلْ عَوَّدْتُكُما غَيْرَ الْحَقِّ ؟

– فَكَيْفَ كانَ ذٰلِكَ ؟

– بَدا عَلَيْهِمُ التَّرَدُّدُ .

– ما أَجْدَرَهُمْ بِالِابْتِعادِ عَنِ الْجَيْشِ ، حَتَّى لا تَسْرِيَ عَدْوَى تَرَدُّدِهِمْ إِلَى غَيْرِهِمْ مِنَ الْمُحارِبِينَ .

— كَذٰلِكَ رَأَى الرَّسُولُ .

— فَكَيْفَ سَمَحَ لَهُمْ بِالْخُرُوجِ !

— كَلَّا ، لَمْ يَسْمَحْ لَهُمْ بِالْخُرُوجِ مَعَهُ ، بَلْ فَصَلَهُمْ عَنِ الْجَيْشِ ، حَتَّى لا يُشِيعُوا فِيهِ رُوحَ التَّرَدُّدِ والْهَزِيمَةِ .

— لَعَلَّهُمْ كانُوا جَماعَةَ « عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ » !

— صَدَقْتَ يا « صَلاحُ » ، فَقَدْ كانَ هٰذا الْمُتَرَدِّدُ يَتَلَمَّسَ الْمَعاذِيرَ جاهِدًا لِلانْفِصالِ مِنَ الْجَيْشِ والْعَوْدَةِ إِلَى « الْمَدِينَةِ » . فَما كادُوا يَقْتَرِبُونَ مِنْ « أُحُدٍ » حَتَّى انْخَذَلَ عَنْهُمْ بِثُلُثِ النَّاسِ .

— هَرَبًا مِنَ الْحَرْبِ .

— لَمْ يَكُنْ يَتَحَمَّسُ لِلْفِكْرَةِ .

— فَأَيَّ عُذْرٍ تَنَحَّلَ ؟

— ما أَكْثَرَ الأَعْذارَ لِمَنْ يَتَلَمَّسُ الْهَرَبَ !

— فَبِماذا تَعَلَّلَ ؟

— لَمْ يُعْجِزْهُ أَنْ يَتَظاهَرَ بِالْغَضَبِ ، زاعِمًا أَنَّ الرَّسُولَ قَدْ صَغَّرَ مِنْ شَأْنِهِ .

— لِماذا ؟

– لِأَنَّهُ أَطاعَ الشَّبابَ ، وَلَمْ يَأْخُذْ بِرَأْيِهِ .

– فَبِماذا أَشارَ « عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ » وَلَمْ يَعْمَلِ الرَّسُولُ بِمَشُورَتِهِ ؟

– أَشارَ بِالْبَقاءِ فِي « الْمَدِينَةِ » .

– أَ كَذٰلِكَ رَأَى ؟

– أَلَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ رَأْيَ الرَّسُولِ أَيْضًا ؟

فَلِماذا تَذُمُّ رَأْيَهُ ، وَقَدْ وافَقَهُ عَلَيْهِ الرَّسُولُ ؟

– ما كانَ « عَبْدُ اللهِ » يَدِينُ بِرَأْيٍ يَعْتَقِدُ صَوابَهُ ، بَلْ كانَ يَتَلَمَّسُ وَجْهَ الْمُعارَضَةِ ، لِيَخْلُقَ مِنْ مُناصَرَةِ الْقِلَّةِ وَسِيلَةً لِلتَّفْرِقَةِ .

– أَتَعْنِي أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُخْلِصًا فِي نُصْحِهِ ؟

– لَوْ كانَ مُخْلِصًا فِي نَصِيحَتِهِ ، لَأَذْعَنَ لِلْمَصْلَحَةِ .. وَلَوْ أَنَّهُ رَأَى الْكَثْرَةَ تُؤَيِّدُ الْبَقاءَ ، لَتَظاهَرَ بِالرَّغْبَةِ فِي الْخُرُوجِ مِنَ الْمَدِينَةِ .

– لِيَتَلَمَّسَ وَسِيلَةً لِشَقِّ عَصا الطَّاعَةِ ، والْخُرُوجِ عَلَى رَأْيِ الْجَماعَةِ .

– فَماذا صَنَعَ « عَبْدُ اللهِ » ؟

— عادَ إِلَى « الْمَدِينَةِ » مُتَظاهِرًا بِالْغَضَبِ ، وانْسَلَخَ بِجَماعَتِهِ عَنْ بَقِيَّةِ الْمُجاهِدِينَ ، وَهُوَ يَقُولُ : « أَطاعَهُمْ وَعَصانِي !

ما نَدْرِي : عَلامَ نَقْتُلُ أَنْفُسَنا ها هُنا ، أَيُّها النَّاسُ ؟ ! »

— كَذٰلِكَ يَفْعَلُ مَنْ فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ .

— ما أَغْنَى الْمُجاهِدِينَ عَنِ اسْتِمالَةِ الْمُتَرَدِّدِينَ !

— إِنَّ عَشَرَةً مِنَ الصَّابِرِينَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفَعُ عِنْدَ الْخُطُوبِ مِنْ عَشَراتٍ وَمِئِينَ ، مِنَ الْمُتَواكِلِينَ الْهَيَّابِينَ .

— كانَ الْمَوْقِفُ عَصِيبًا حَرِجًا .

كانَ فِي غايَةِ الْحَرَجِ بِلا شَكٍّ ، فَقَدْ كانُوا سَبْعَمِائَةٍ لَمْ تَسْتَكْمِلْ عُدَّتُهُمْ ، يُحارِبُونَ ثَلاثَةَ آلافٍ كامِلِي الْعُدَّةِ .

— لا تَنْسَ يا « رَشادُ » أَنَّ إِيمانَهُمْ كانَ يُلْهِبُ صُدُورَهُمْ ، وَيَحْفِزُهُمْ إِلَى صِدْقِ الْجِهادِ .

— وَلا تَنْسَ يا « صَلاحُ » أَنَّ طَلَبَ الثَّأْرِ كانَ يُلْهِبُ صُدُورَ أَعْدائِهِمُ الْمُتَعَطِّشِينَ لِلدِّماءِ .

— يا لَها مَوْقِعَةً هائِلَةً ! فَماذا صَنَعَ الرَّسُولُ ؟

— خَرَجَ الرَّسُولُ أَوَّلَ الأَمْرِ يَقُودُ رِجالَهُ إِلَى الْحَرْبِ .

وَكانَ مِنْ بَيْنِهِمْ تِلْكَ الْفِئَةُ الْمُتَرَدِّدَةُ مِنْ أَنْصارِ «عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ».

فَلَمَّا بَدا عَلَيْهِمُ التَّرَدُّدُ كَما رَأَيْتُما، وَعَرَفَ الرَّسُولُ أَنَّهُمْ لَنْ يَصْدُقُوا الْقِتالَ، نَحَّاهُمْ عَنِ الْجَيْشِ؛ فَعادَ «عَبْدُ اللهِ» بِهِمْ غاضِبًا.

— وَذَهَبَ الرَّسُولُ وَمَعَهُ ثُلُثا الْجَيْشِ الَّذِى خَرَجَ بِهِ.

— فَأَيُّ مَكانٍ اخْتارَهُ الرَّسُولُ لِمُناجَزَةِ «قُرَيْشٍ»؟

— اخْتارَ جَبَلَ «أُحُدٍ» مَيْدانًا لِلْحَرْبِ.

— أَتَعْنِي بِـ «أُحُدٍ» ذٰلِكَ الْجَبَلَ الْمَعْرُوفَ فِي «الْمَدِينَةِ»؟

— أَكانَ جَبَلًا شامِخًا مِنْ شَوامِخِ الْجِبالِ؟

— لا، وَلا تَلًّا مِنْ عَوالِي التِّلالِ!

— فَما كانَ؟

— صَخْرَةً مُرْتَفِعَةً فِي الصَّحْراءِ. وَقَدْ أَلِفَ الْعَرَبُ أَنْ يُطْلِقُوا عَلَيْها وَصْفَ الْجَبَلِ!

— كَيْفَ يُسَمُّونَ الصَّخْرَةَ جَبَلًا؟

— لَعَلَّهُمْ جَرَوْا عَلَى مَأْلُوفِ عادَتِهِمْ فِي الدُّعابَةِ ، كَما نُطْلِقُ عَلَى الْقَزَمِ الْمُتَناهِي فِي الْقِصَرِ وَصْفَ الْعِمْلاقِ .

— سَواءٌ أَكانَ « أُحُدٌ » جَبَلًا أَمْ صَخْرَةً ، أَمْ هَضْبَةً أَمْ حُفْرَةً ، أَمْ حَضِيضًا أَمْ ذِرْوَةً ، فَقَدْ أَكْسَبَتْهُ تِلْكَ الْغَزْوَةُ الْخالِدَةُ نَباهَةً وَشُهْرَةً لَمْ تَتَمَتَّعْ بِمِثْلِهِما شَوامِخُ الْجِبالِ .

— صَدَقْتَ يا « سَعِيدُ » . فَقَدْ شَهِدَتْ هٰذِهِ الصَّخْرَةُ ما لَمْ يَشْهَدْهُ غَيْرُها مِنْ خالِدِ الْغَزْوِ ، وَرائِعِ الْبُطُولَةِ ، وَكَرِيمِ التَّفْدِيَةِ .

— والْآنَ عَرَفْنا لِماذا أَطْلَقُوا عَلَى هٰذِهِ الصَّخْرَةِ الْعالِيَةِ اسْمَ الْجَبَلِ .. فَلِماذا أَطْلَقُوا عَلَيْها اسْمَ « أُحُدٍ » ؟

— لِتَوَحُّدِها وانْقِطاعِها عَمَّا يُجاوِرُها مِنَ الْجِبالِ الْأُخْرَى .

— كانَ أَوَّلَ ما حَرَصَ عَلَيْهِ الرَّسُولُ أَنْ يُسْرِعَ بِإِعْدادِ جَيْشِهِ ؛ فَأَعَدَّ خَمْسِينَ مِنْ أَبْرَعِ رُماتِهِ فِي عالِيَةِ الْجَبَلِ ، لِيَحْمُوا ظُهُورَ أَصْحابِهِ ، وَيَذُودُوا عَنْهُمْ هَجَماتِ الْفاتِكِينَ .

وَكَأَنَّما شَعَرَ الرَّسُولُ - بِما وَهَبَهُ اللّٰهُ مِنْ بَصِيرَةٍ أَلْمَعِيَّةٍ نَفَّاذَةٍ - بِما يَتَعَرَّضُ لَهُ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ كارِثَةٍ ، إِذا تَهاوَنَ الرُّماةُ فِي تَنْفِيذِ وَصِيَّتِهِ ؛ فَراحَ يُؤَكِّدُ لَهُمُ النَّصِيحَةَ والتَّحْذِيرَ .

وَلا أَدَلَّ عَلَى ذٰلِكَ مِنْ قَوْلِهِ :

« اِحْمُوا لَنا ظُهورَنا ؛ فَإِنَّا نَخافُ أَنْ يَجِيئُونا مِنْ وَرائِنا ، وَالْزَمُوا مَكانَكُمْ لا تَبْرَحُوهُ .

وَإِنْ رَأَيْتُمُونا حَتَّى نَدْخُلَ عَسْكَرَهُمْ فَلا تُفارِقُوا مَكانَكُمْ .

وَإِنْ رَأَيْتُمُونا نُقْتَلُ فَلا تُعِينُونا وَلا تَدْفَعُوا عَنَّا .

وَإِنَّما عَلَيْكُمْ أَنْ تَرْشُقُوا خَيْلَهُمْ بِالنَّبْلِ ، فَإِنَّ الْخَيْلَ لا تُقْدِمُ عَلَى النَّبْلِ » .

– يا لَها مِنْ وَصِيَّةٍ جامِعَةٍ مانِعَةٍ !

– كَذٰلِكَ يَصْنَعُ الْقائِدُ الْحَكِيمُ .

– وَما كادَ الرَّسُولُ يُتِمُّ تَنْظِيمَ جَيْشِهِ ، حَتَّى ظَهَرَتْ طَلائِعُ الْأَعْداءِ قادِمَةً إِلَيْهِمْ فِي ذٰلِكَ السَّهْلِ الْفَسِيحِ . وَتَعالَتْ هُتافاتُ النِّساءِ وَأَناشِيدُهُنَّ . . وَأَقْبَلَتْ « هِنْدٌ » وَصَواحِبُها عَلَى رِجالِهِنَّ يَدْفَعْنَهُمْ إِلَى حِياضِ الْمَوْتِ ، ضارِباتٍ بِالدُّفُوفِ ، مُرَتِّلاتٍ أَناشِيدَ تَرْمِي بِالْخُصُومَةِ وَاللَّدَدِ ، وَتَحُضُّهُمْ عَلَى الْأَخْذِ بِالثَّأْرِ ، وَتُزَيِّنُ لَهُمُ الْمَوْتَ .

– وَهٰكَذا الْتَقَى الْجَيْشانِ ، فَكَأَنَّما كانا عَلَى مِيعادٍ .

– أَقْبَلُوا عَلَيْهِ فِي جَمْعِهِمُ الحاشِدِ ، كامِلِي الْعَتادِ ، مَوْفُورِي الْأَحْقادِ .

– وَسَمِعَ الْمُسْلِمُونَ صَيْحاتِ « هِنْدٍ » وَصَواحِبِها ، وَهُنَّ يَضْرِبْنَ بِالدُّفُوفِ ، مُنْشِداتٍ أَناشِيدَ الْحَماسَةِ والْوَعِيدِ .

– سُحْقًا لَهُنَّ وَتَبًّا !

– أَتَعْرِفانِ كَيْفَ أَقْبَلَتْ عَلَيْهِمْ « هِنْدٌ » وَصَواحِبُها ؟

– كانَتْ ، فِيما قَرَأْتُ ، تَتَنَزَّى مِنَ الْغَضَبِ ، وَتَرْقُصُ هِيَ وَصَواحِبُها رَقَصاتِ التَّشَفِّي والْأَلَمِ حَوْلَ صَنَمٍ كُنَّ يَحْمِلْنَهُ عَلَى جَمَلٍ ، ثُمَّ يُنْشِدْنَ أَناشِيدَهُنَّ الثَّائِرَةَ .

– كَذٰلِكَ يَفْعَلُ الْمَجانِينُ .

– بَلْ هُنَّ شَرٌّ مِنَ الْمَجانِينِ !

– ثُمَّ ماذا ؟

–وَكانَ « طَلْحَةُ » حامِلُ لِواءِ الْأَعْداءِ يَتَرَنَّحُ مِنَ الْغَيْظِ والْحِقْدِ ، وَقَدِ اشْتَدَّ ظَمَؤُهُ إِلَى الثَّأْرِ ؛ فانْدَفَعَ فِي صَلَفٍ مُباهِيًا صاخِبًا ، لاعِنًا مُتَحَدِّيًا .

— قُبِّحَ مِنْ مَغْرُورٍ .

أَلا فَتًى يَبْتَدِرُهُ بِضَرْبَةٍ حاسِمَةٍ ، كاسِرَةٍ لِلرَّأسِ حاطِمَةٍ ، يُرْضِي بِها دِينَهُ وَرَبَّهُ ، وَيَشْفِي قُلُوبَنا وَقَلْبَهُ ؟

— لَمْ يَفُتْ « عَلِيًّا » تَحْقِيقُ ما طَلَبْتَ ، وَإِنْجازُ ما أَمَّلْتَ .

— لِلّٰهِ دَرُّهُ ! ماذا صَنَعَ ؟

— أَسْرَعَ إِلَى « طَلْحَةَ » يَتَحَدَّاهُ ، وَأَوْرَدَهُ حَتْفَهُ وَأَرْداهُ .

— كَأَنَّما خَرَجَ لِحَيْنِهِ وَهَلاكِهِ .

— صَدَقْتَ ، فَقَدِ ابْتَدَرَهُ « عَلِيٌّ » بِضَرْبَةٍ باطِشَةٍ ، فَصَلَتْ رَأْسَهُ عَنْ جَسَدِهِ .

— لَقَدْ أَتْعَبَ « طَلْحَةَ » حَمْلُ رَأْسِهِ الْخَرِفِ ؛ فَأَراحَهُ « عَلِيٌّ » مِنْ ذٰلِكَ الرَّأْسِ الْمَمْلُوءِ بِالْغُرُورِ والصَّلَفِ .

— يا لَها مِنْ بِدايَةٍ صالِحَةٍ !

— كانَتْ خَيْرَ بِدايَةٍ لِتِلْكَ الْمَعْرَكَةِ الْهائِلَةِ .

— صَدَقْتَ يا « صَلاحُ » ، وَقَدِ ابْتَهَجَ لَها الرَّسُولُ ، وَرَفَعَ صَوْتَهُ بِتَكْبِيرِ اللّٰهِ .

— بِمِثْلِ هٰذا الْفَوْزِ الْعَظِيمِ بُدِئَتِ الْمَعْرَكَةُ ، فَقَدْ أَسْرَعَ «عُثْمانُ» : أَخُو الْمَقْتُولِ ، مُتَحَفِّزًا لِلأَخْذِ بِثَأْرِ أَخِيهِ ؛ فابْتَدَرَهُ «حَمْزَةُ» : عَمُّ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بِضَرْبَةٍ خاطِفَةٍ ، عَجَّلَتْ بِهِ إِلَى الْجَحِيمِ .

— وَبِهٰذَيْنِ الْقَتِيلَيْنِ ابْتَدَأَتِ الْحَرْبُ ... وَلَمْ تَلْبَثْ أَنِ اشْتَعَلَتْ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ ، وَحَمِيَ أُوارُها ، والْتَهَبَتْ نارُها ، واسْتَماتَ كُلُّ مُحارِبٍ فِي سَبِيلِ الْفَوْزِ .

— وَبِهٰذِهِ الْبِدايَةِ الرَّائِعَةِ دارَتْ رَحَى الْحَرْبِ ، مُجَلْجِلَةً هائِلَةَ الدَّوِيِّ .

— واندَفَعَ «حَمْزَةُ» إِلَى الْحَرْبِ أَسَدًا ثائِرًا ، فَقَتَلَ حامِلَ اللِّواءِ .. وَتَبِعَهُ فِي ذٰلِكَ أَفْذاذُ الْمُجاهِدِينَ مِنْ مُحارِبِي الْمُسْلِمِينَ كَـ «عَلِيِّ بْنِ أَبِي طالِبٍ» ، «وَأَبِي دُجانَةَ» وَمَنْ إِلَيْهِما .

وَفَتَكَ «حَمْزَةُ» بِكُلِّ مَنْ لَقِيَهُ مِنَ الأَبْطالِ ، وَتَحاشاهُ النَّاسُ ، فَلَمْ يَجْرُؤْ أَحَدٌ عَلَى الدُّنُوِّ مِنْهُ .

وَكانَتْ شِدَّةً رائِعَةً زَحْزَحَتِ الأعْداء ، وَأَلْقَتْ فِي قُلوبِهِمُ الرُّعْبَ والْفَزَعَ ، وَلَمْ تُبْقِ عَلَيْهِمْ إِلّا الْهَزِيمَةَ . . وَكادَتْ نِساءُ «قُرَيْشٍ» يَقَعْنَ فِي أَسْرِ الْمُسْلِمِينَ .

وَهٰكَذا اقْتَتَلَ النَّاسُ حَتَّى بَلَغَتِ الْمَعْرَكَةُ أَوْجَ شِدَّتِها .

وَسُرْعانَ ما رَجَحَتْ كِفَّةُ الْمُسْلِمِينَ ، وَتَجَلَّتْ بَشائِرُ الْفَوْزِ لَهُمْ ، وَظَهَرَتْ عَلاماتُ الْهَزِيمَةِ عَلَى أَعْدائِهِمْ .

— فَلَمْ يَجِدِ الأَعْداءُ مِنَ الْهَرَبِ بُدًّا .

— كَذٰلِكَ كانَ ، وَلاحَتْ لَهُمْ نُذُرُ الْفَناءِ والدَّمارِ ، فَلَمْ يَرَوْا فِي غَيْرِ الْفِرارِ مُنْقِذًا لَهُمْ مِنْ تِلْكَ الْجَحِيمِ الْمَشْبُوبَةِ الأُوارِ .

— لا رَيْبَ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ قَدِ ابْتَهَجُوا لِهٰذا النَّصْرِ الْحاسِمِ السَّرِيعِ .

— لَيْتَهُمْ لَمْ يَبْتَهِجُوا .

— كَيْفَ تَقُولُ ؟

— أَقُولُ : لَيْتَهُمْ لَمْ يَسْتَسْلِمُوا لِلْفَرَحِ والِابْتِهاجِ .

— عَجِيبٌ ما تَقُولُ ! أَكَثِيرٌ عَلَيْهِمْ أَنْ يَجْنُوا ثِمارَ ما أَحْرَزُوهُ مِنْ فَوْزٍ ؟

— جَنَوْهُ ثِمارًا فِجَّةً ، وَلَوْ صَبَرُوا لَجَنَوْهُ ثِمارًا شَهِيَّةً ناضِجَةً .

— ماذا تَعْنِي ؟

— أَعْنِي أَنَّهُمْ لَوْ تَرَيَّثُوا قَلِيلًا وَلَمْ يَتَعَجَّلُوا ، لَتَمَّ لَهُمُ النَّصْرُ .

— أَلَمْ يَتِمَّ لَهُمُ النَّصْرُ ؟

— بَدَأَ ، وَلَمْ يَتِمَّ .

— أَلَمْ تَقُلْ : إِنَّ أَعْداءَهُمْ شَمَّرُوا لِلْهَرَبِ ، وَلاذوا بِأَذْيالِ الْفِـــرارِ ؟

— كَذٰلِكَ قُلْتُ .

— فَماذا بَقِيَ مِنْ أَماراتِ النَّصْرِ ؟

— بَقِيَ أَنْ يَتَحَقَّقَ النَّصْرُ . بَقِيَتِ الْخاتِمَةُ الْحاسِمَةُ . والْعِبْرَةُ دائِمًا بِالْخَواتِيمِ ، وَلا قِيمَةَ لِلْبِدايَاتِ النَّاجِحَةِ ، إِذا لَمْ تَــكُنْ نِهاياتُها صالِحَةً .

— رَجَعْتَ بِنا ، يا « رَشادُ » ، إِلَى ما عَوَّدْتَنا مِنْ عَوِيصِ الْأَحاجِيِّ ، وَغامِضِ الْأَلْغازِ .

— لَيْسَ فِيما أَقُولُ لَبْسٌ وَلا غُمُوضٌ ، بَلْ هُوَ واضِحٌ ، لا خَفاءَ بِهِ ، وُضُوحَ الشَّمْسِ فِي رائِعَةِ النَّهارِ .

— خَبِّرْنا يا «رَشادُ» : أَلَيْسَتِ الْبِدايَةُ الصّالِحَةُ بَشِيرًا بِالْخَواتِيمِ الصّالِحَةِ ؟

— إِذا عَرَفَ الْحازِمُ كَيْفَ يَتَوَخَّى أَهْدافَهُ وَيُسَدِّدُها ، وَلَمْ يَتَعَجَّلْ ثَمَرَةَ النَّصْرِ فَيَفْقِدَها . إِذا لَمْ يَطْغَ السُّرُورُ والْفَرَحُ عَلَى نَفْسِ الْمُنْتَصِرِ ، فَلا رَيْبَ فِي بُلُوغِهِ كُلَّ ما يَتَمَنّاهُ . فَأَمّا إِنِ اسْتَخَفَّهُ الْفَرَحُ ، فَإِنَّهُ يَضِلُّ طَرِيقَ الْحَزْمِ ، وَتَتَعَثَّرُ خُطاهُ .

— ما أَعْجَبَ ما تَقُولُ !

— خَبِّرانِي أَيُّها الصَّدِيقانِ :

بِماذا انْتَصَرَ الْمُسْلِمُونَ فِي بَدْءِ هٰذِهِ الْغَزْوَةِ عَلَى أَضْعافِهِمْ مِنَ الْأَعْداءِ ؟

أَلَيْسُوا قَدِ انْتَصَرُوا بِالتَّفانِي فِي الْجِهادِ ، والصَّبْرِ عَلَى الْمَكْرُوهِ ؟

— صَدَقْتَ ، فَماذا حَدَثَ ؟

— فَإِذا تَخَلَّوْا عَنْ هٰذِهِ الْمَزايا ، وَفَتَرَتْ حَماسَتُهُمُ الْمُتَأَجِّجَةُ فَتَهاوَنُوا فِي الْقِتالِ ؛ فَأَيُّ عَجَبٍ فِي أَنْ تَنْعَكِسَ الْآيَةُ ؟

— نَرْجُو أَلّا تَنْعَكِسَ .

— لا قِيمَةَ لِلرَّجاءِ ، إِذا بُنِيَ عَلَى غَيْرِ أَساسٍ .

– خَبِّرْنا : كَيْفَ تهاوَنُوا فِي جِهادِهِمْ ، بَعْدَ أَنْ أَصْبَحُوا مِنَ الْفوْزِ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ؟

– تَعَجَّلُوا النَّصْرَ قَبْلَ أَوانِهِ ، وَحَسِبُوا أَنَّ غَزْوَتَهُمْ قَدِ انْتَهَتْ بِالْفوْزِ ، فَنَسُوا ما أَوْصاهُمُ الرَّسُولُ بِهِ ، وَتَهافَتُوا إِلَى خِيامِ أَعْدائِهِمْ مُسْرِعِينَ .

– يا لَلْهَوْلِ ! ! أَ كَذٰلِكَ يُخْدَعُونَ ؟

– وَنَسِيَ الرُّماةُ نَصِيحَةَ الرَّسُولِ ؛ فَتَرَكُوا أَماكِنَهُمُ الْمُرْتَفِعَةَ الْحَصِينَةَ ، وَسارَعُوا إِلَى أَصْحابِهِمْ لِيَشْرَكُوهُمْ فِيما ظَفِرُوا بِهِ مِنْ غُنْمٍ .

– صَدَقْتَ فِيما قُلْتَ ، لَقَدْ أَنْساهُمُ الظَّفَرُ واجِبَ الْحَذَرِ !

– وَمِنَ الْعَجَبِ ، أَنَّ الْمَوْقِعَةَ بِرَغْمِ هٰذا الْخَطَإِ الْجَسِيمِ ، كادَتْ تَنْتَهِي بِفَوْزٍ عَظِيمٍ !

– فَماذا عَكَسَ الآيَةَ ؟

– يَقَظَةُ « خالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ » فِي جَيْشِ الأَعْداءِ .

– لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ !

ماذا صَنَعَ «خالِدٌ» ؟

– رَأَى الرُّماةَ يَتْرُكُونَ أَماكِنَهُمُ الْحَصِينَةَ الَّتِي اخْتارَها لَهُمُ الرَّسُولُ ، فَلَمْ يُضِعِ الْفُرْصَةَ الذَّهَبِيَّةَ النَّادِرَةَ .

– كَيْفَ انْتَهَزَها ؟

– لَمْ يَكُنْ مِثْلُ هٰذا الْمُحارِبِ الْأَلْمَعِيِّ الْفَذِّ ، لِيَتْرُكَ فُرْصَةً سَنَحَتْ لَهُ ، دُونَ أَنْ يَقْتَنِصَها اقْتِناصًا !

– وَكَذٰلِكَ يَفْعَلُ الدُّهاةُ الْبارِعُونَ ، والْقادَةُ الْمُدَرَّبُونَ !

– لَمْ يُضِعْ «خالِدٌ» الْفُرْصَةَ سُدًى ؛ فَنادَى فُرْسانَهُ أَنْ يَحْتَلُّوا مَشارِفَ الرُّماةِ ، وَسُرْعانَ ما دَهَمَ الْمُجاهِدِينَ ، وَهُمْ فِي شُغُلٍ عَنْ لِقائِهِ بِجَمْعِ الْأَسْلابِ والْغَنائِمِ .

– يا لَلْكارِثَةِ !

– وَهٰكَذا تَغَيَّرَ وَجْهُ الْمَعْرَكَةِ فِي لَحْظَةٍ خاطِفَةٍ .

– يا لَلّٰهِ ! أَهٰكَذا يَتَحَوَّلُ النَّصْرُ هَزِيمَةً ، فِي مِثْلِ لَمْحَةِ الْعَيْنِ ، وَيَنْقَلِبُ الرُّجْحانُ خِذْلانًا !

– إِنَّهُ دَرْسٌ لا يُنْسَى !

— وَلٰكِنَّهُ دَرْسٌ مُتَناهٍ فِي الْقَسْوَةِ .

— كانَ ، عَلَى تَناهِيهِ فِي قَسْوَتِهِ ، مُقَدِّمَةً لِما تَلاهُ مِنْ نَجاحٍ حازِمٍ ، وانْتِصارٍ حاسِمٍ .

— «وَكَمْ حَياةٍ جَناها الْمَرْءُ مِنْ تَلَفٍ
وَرُبَّ أَمْنٍ جَناهُ الْمَرْءُ مِنْ وَجَلٍ» !

— صَدَقَ الشَّاعِرُ الْحَكِيمُ .

— إِنَّ الْحَياةَ كَما تَعْلَمانِ تَجارِبُ وَعِبَرٌ : مَنْ أَفادَ مِنْها وانْتَفَعَ بِها كانَ النَّجاحُ حَلِيفَهُ ، وَمَنْ غَفَلَ عَنْها ، حَقَّ عَلَيْهِ الْخِذْلانُ .

— «مَنْ لَمْ تُفِدْهُ عِبَرًا أَيَّامُهُ
كانَ الْعَمَى أَوْلَى بِهِ مِنَ الْهُدَى» !

— إِنَّ الْحازِمَ جَدِيرٌ أَنْ يَنْتَفِعَ بِالْهَزِيمَةِ كَما يَنْتَفِعُ بِالنَّصْرِ .

— صَدَقْتَ ، وَكانَ لِهٰذِهِ الْهَزِيمَةِ عَلَى سُوئِها مِنْ حَمِيدِ الْآثارِ ، أَضْعافُ ما أَلْحَقَتْ بِهِمْ مِنَ الْخَسارِ . . وَكانَ لَهُمْ فِيما أَحْرَزُوهُ فِي الْغَزَواتِ الْمُظَفَّرَةِ التَّالِيَةِ مِنَ انْتِصارٍ ، ما هَوَّنَ عَلَيْهِمْ مَرارَةَ هٰذا الِانْكِسارِ !

مجموعة من حياة الرسول

أضواء من المولد السعيد

القسم الأول

بين عصر الظلام ومطلع الفجر
هجرة الصحابة
شدائد وأزمات
دواعي الهجرة
هجرة الرسول

القسم الثاني

من المولد إلى الهجرة
من ميدان إلى ميدان
مقدمات الحرب
السهم الأول
رؤيا عاتكة
بين السلم والحرب
نقطة التحول
على هامش بدر
قلوب موتورة

القسم الثالث

أحقاد ثائرة
درس لا ينسى
ملتقى الأهوال
خاتمة أحد
ذكريات أحد
بعد عام

القسم الرابع

غزو ثان
صخرة الخندق
مناوشات يائسة
سفير الغدر
بارقة الأمل
حارس النار
عابد الذهب
الباحث عن الحق
كفاح موصول
حسم الشر
صرخة شيطان

القسم الخامس

تفرق الأحزاب
غزوة سلمية
حيرة الأعداء
فتح قريب
شباب قريش

ظهرت حديثا ترجمات

السيرة إلى اللغات :

الإنجليزية والفرنسية
والألمانية والأردية
والإندونيسية

ثمن الجزء ٤ قروش